قصة قصيرة

الوصول

بقلم : زكي العيلة

زكي العيلة قاص فلسطيني معروف في الوطن المحتل . عرفناه في مجموعته القصصية « العطش » وسنلتقي به في مجموعته التالية ، التي ستصدر عن « دار الكاتب » في الارض المحتلة وعنوانها : « الجبل لا يأتي » .
« الوصول » هي احدى قصص المجموعة ، وقد نشرتها مجلة « البيادر » نصف الشهرية (العدد ٢ السنة الرابعة) .
اهمية « الوصول » ، انها تتابع مراحل نضال شعبنا في الداخل ، خاصة مرحلة « الادارة الذاتية » اذا جاز التعبير، وهو ما يكسبها اهمية خاصة الى جانب اهميتها الادبية .

الطريق من جبالنا الى الجسر طويلة ، اطول من المعتاد ، قصيرة اقصر من المعتاد .. لا فرق .. لا يحس بذلك اللاعرق الا المغادر ..

تجربته الاولى مع هذه الطريق بدأها نازحا منذ سنوات عشر .. خيط رفيع جدا يفصل ما بين مصطلحي المغادرة او النزوح غير ان المصطلحين يقودان في النهاية الى نتيجة واحدة .. ترك البلد ... اجبار ما على ذلك الترك ..

عندما ترك الجسر من خلفه قبل اسبوعين متجها نحو مخيمه تبدت تجربة النزوح له بصورة لم تخطر على باله طوال الاعوام الماضية ..

.. انضغت التجربة بمعاناة مراحلها دفعة واحدة في ذهنه .. تفككت عناصرها .. تباعدت .. انضغطت .. تماسكت ثانية لتغدو الصورة اكثر وضوحا واشد حرقة ..

كل المصطلحات والمقاييس الزمانية والمكانية تكتسب تقاسيرها عبر تداخلات الواقع المستمر .. آه .. لو ان السائق يبطيء في سرعة سيارته .. لو يفك هذا المذياع اللعين ..

.. دوار يطيح برأسه ... تتجمع افكاره لتتدحرج ثانية ... يودع جبهته راحة يده .. يتعالى صوت المذياع :

— وستصبح سيناء جنة تهب لشعبنا الرخاء .. يا شعب .. يا شعبنا..

وتعاونت تعليقات الركاب :

— لماذا لم يكتشفوا تلك الجنة من قبل ؟

— اين كانوا من تلك الجنة ؟

برتفع صوت المذياع ثانية :

— احدى نتائج الاتفاق الاطراح عن العديد من المناطق الفلسطينيين وفي حالة عدم موافقة « اسرائيل » على منحهم حق البقاء سنستضيفهم في سيناء .

.. هكذا ترسم المقدرات اذن .. كل الاشياء معلقة على منحة او اخرى.. امر يدبع حقا .. لقد تنازلوا عن جزء من جنتهم المكتشفة « لاستضافة » معتقلينا..

.. هكذا تحل الامور من (استضافة) الى (استضافة) .. من منفى الى منفى ومن زنزانة الى زنزانة ..

لقد ذاق طعم السجن اكثر من مرة ..

اول لقاء له مع الزنازين كان قبيل اجباره على النزوح الى الضفة الاخرى.. لتزداد مسيرة اللقاءات .. تتوالد بعد ذلك .. سبان ان تكون مطاردا في ارضك او طليقا في جنات الاخرين ..

النتيجة واحدة لواحد بل ان نقطة الترجيح تميل لصالح الفرضية الاولى دونما التفات للمسببات والنتائج :

— هذه هي المسيرة .

اشار السائق الى كومة من البيوت المهدومة على جانبي الاسفلت الهابط بالسور واشجار البرتقال ..

— يا ولداه على المسيرة ..

.. قالها احد الركاب متمثلا ومستحضرا ذكرياته . يتجرع الهواء ملء رئته وكأنه يختزن بحرا من الانفاس لغد مجهول ..

حينما حطت قدماه على ارض مطار عمان ازدادت احاسيسه التحسه ضراوة ..

كان مقدرا لما قد يحدث لكنه اصر على المجيء .. اصر على تكملة رحلته .. اشبعوه تفتيشا .. صادروا وثيقة سفره طالبين منه استلامها من المخابرات العامة ..

ثمانية ايام متتالية .. حفظ مسيرته عن ظهر قلب .. غرفة تؤدي الى غرفه ودرج يقود الى درج .. ارتفاع .. نزول .. انحناء .. غرفة صغيرة يدخلها وحيدا من الثامنة ولا يخرج منها قبل الواحدة والنصف ظهرا حينما يدخل عليه احدهم قائلا بلهجة يفوح التصنع من نبراتها :

— ماذا ؟ اما زلت تنتظر حتى الان .. لا بأس .. لتعد ثانية صباح الغد..

ثمانية ايام متتالية وذات الاسطوانة تدور ... لتعد صباح الغد .. لتعد صباح الغد ..

يريدون اذلاله .. تحطيم اعصابه .. ضعضعته .. يعرف عناصر اللعبة تماما .. اعصابه تشاركه التحدي .. تستوعب التحدي رغم مجهوليه الاتي ..

في اليوم التاسع وبعد حفنة من اللكم فتحوا ملفه .. ملفه منفتح بطاوره من الاوراق .. سلسلة لا تنتهي من حجوم ومقاسات ورقية متباينة ..

ورقة واحدة لا يعرفها ملفه .. حسن السير والسلوك .. شهادة الاستحقاق .. فرمان البراءة ..

.. لحسن السير والسلوك علامات كبرى وعلامات صغرى .. سلسلة من المؤهلات ..

القلم المغلق .. الذهن المغلق .. اليد المغلقة .. تتهمر الاسئلة :

— متى سجنت ؟ لماذا ؟ اين تعمل ؟ ماذا تعمل ؟ لماذا جئت ؟ كيف ؟ متى ؟ ماذا تريد ؟

.. والاجابات جاهزة معروفة .. التهمة مرصودة لديهم :

.. الوحدات .. ابواء بعض رجال المقاومة قبل واثناء اشتباكات الاول ..

... عاينين من الزنازين والاستضافات ..

لم يستخلصوا منه شيئا ..

زيارة الاهل في القطاع ... محاسب في (الدوحة) خمسة اعوام .. لم

ارهم منذ عشر سنوات . ولتضاف الى ملفه عدة وعدة بصمات .

الانسان في نظرهم مجرد ورقة .. بصمة .. ملف .. وثيقة سفر .. حسن سلوك .. تاشيرة مرور يمنعونها او يمنحونها .. يحجزونها عبر زنازينهم ونقاط حدودهم او يطوحون بها خلال موانيهم ومطاراتهم ..

.. لتظل نقطة الترجيح ..

افضلية الموازنة .. الفرضية الاولى ..

.. اندفعت السيارة تاركة خلفها احدى الالتواءات الحادة ..

يتامل الشجر النابت .. سرو .. زيتون .. كينا .. صنوبر .. قمم قريبة:

وقال احد الركاب :

— تلك العريات المثبتة الى جانبي الطريق تمثل رموزا للدبابات والسيارات العسكرية التي اعطبها ثوارنا قبل واثناء معارك ٤٨ .

.. يخلس النظر الى جانبي الطريق ..

.. ومن يستحضر رموزنا يا اخ .. رموزنا واضحة معروفة اما هم فينعتون في رموز منهالكة ... يصنعون الرموز او يتصنعونها .. لا فرق ..

رئيس اكبر دولة عربية يزور القدس .. تحطيم الحاجز النفسي ... صراعنا نفساني في كل مراحله ..

الحرب اداة غير متحضرة.. المؤيد الامريكي يلتقي بزعماء الشعب الفلسطيني. احدهم يعلن بعد ان يعدل من وضع رباط عنقه كي يبدو صورته اكثر اناقة وتحضرا وبمقولية على الشاشة الصغيرة :

— « الزعامة الحقيقية لا تثبت الا في الملمات » .

.. الملمات يا زعيم .. الوجاهة .. الياقة الملمعة .. الذهب ... «الخلاتيات الغربية » الامتطاء .. امتطاء من مانوا بثمن بخس احيانا وبثمن حقيقي احيانا اخرى على اطراف الشوارع والمخيمات ..

— المصرارة .. باب العامود ..

قالها السائق بلهجة عادية واضاف :

— يجب ان اصل باسرع ما يمكن .. حجز الدور والتحمل صعب في مثل هذا الوقت .

— العجلة من الندامة .. الرزقة مكتوبة .. ما بيصيبك الا نصيبك وبزيادة عشرة ..

— قد ما بتجري ما بتحوش غير رزقتك ..

... باب العامود يكتظ باموام العمال رغم ان الشمس ما تزال مختبئة ..

— ما دام الوصول مطلبنا الاساسي فلا داعي للسرعة والعجلة الزائدة ..

هتف بها الراكب الامامي وقد غطس في مقعده مشدودا الى حزام الامان .

واقعنا يشبه حزام الامان الى حد ما ..

يطوقوننا بالكثير من الاشياء والمقاييس .. يمنطون المفاهيم .. يغلبونها اتباعا على المصلحة العامة (المتهتكة) .. التفاوت الطبقي زعامة في الملمات الجديدة ..

.. الصراع الطبقي مفهوم مناف لروح التحضر وروح النفط ..

روح التحضر ان ينفخ الله في بيارات من يشاء .. ان تتمدد عمارات وسيارات من يشاء ... وأيتام الاخرون على التراب او تحت التراب .. لا فرق.. لا تشاز .. لا تناقض ..

التناقض ان تصرح ان هناك تناقضا .

نارجح .. هبوط .. تهبيع .. والتهم الرأسمالي واحد .. الخندق اليميني واحد ..

خمسة اعوام واعواه اخوته القابعين في المخيم لا تاكل او تمل ..

هكذا قال لرجلي التحقيق المرجوبين شرقي النهر وغربه ..

قال رجل التحقيق الاول بعد موشح الصدق والكلم :

— المرة الاولى والاخيرة التي تزور بها الضفة عن طريق عمان ... على الضفة الثانية قال له رجل التحقيق الثاني بعد ان تامل الكشوفات التي امامه :

— البلاد مفتوحة امامك .. لتنق بحسن مراقبتنا .. لن نرحمك اذا ما لعبت بذيلك ..

.. المرارة واحدة .. الاهتمام والتصاريح واحدة ، وسيناء ستغدو جنة بعد ان نكنس اخر القمامات النفسية ..

.. الدولة الفلسطينية مرفوضة لانها ستاتي بالسوفيات الى المنطقة والمنطقة بحاجة الى زعامة ، والزعامة بحاجة الى باقات ملمعة ، والباقات الملمعة لا تثبت الا في الملمات ، والملمات لا تتعدى الحواجز النفسية ..

حروب المنطقة اهواء ذاتية شخصية ولتكبر شاشات التلفزيون ولتضخم سطور الجرائد اكثر فاكثر .

— ربع ساعة ونصل اربحا .

قالها السائق .. تمايلت الرؤوس .. استنامت الجفون . يتامل الصخور التي تلمع المكان ..

تتوالب افكاره ..

.. الرد ؟ البديل ؟

الطرق واضحة محددة .. لا انحناءات .. لا تعرجات .. لا بعثرات فيها

.. كل ما نحتاجه المزيد من البرمجة الفكرية والتنظيمية ... المزيد من التلاحم الجماهيري ... التجذر .. الشحن الثوري ..

سبعة اعوام ولا يزال طعم الاسبرتو المتسكب على رؤوس اصابعه المذبوحة المتزوعة الاظافر يملأ عليه خانات تفكيره ..

الدائرة المبنية واحدة ... احتواء .. اجهاض .. ليل اسود مرخي ..

الانسان في نظرهم تاشيرة مرور ينقادونها ..

الفرضية الاولى .. ان تكون مطاردا في ارضك او طليقا في جنات الاخرين

.. افضلية الموازنة ، ينظرون الينا نظرتهم الى رقم مذيب لا تهضمه مقصاتهم او حاسباتهم .. يحاولون تشذيب الرقم ... مصادرته .. يتدفق الرقم .. تتوهج اطرافه ومساماته وتظل التاشيرات ووثائق السفر المعطلة انيابا جاهزة تطاردك من محطة الى محطة ، ومن نقطة حدودية الى نقطة اخرى .

— ارجو ان تقف ايها السائق ..

ارتفعت الى وجهه عيون عدة .. تسلقته نظرات كثيرة .. تمتد اصابع السائق تمايث اكياس النايلون :

— هل اصابتك دوخة ؟

— بل نسيت شيئا مهما .

زعقت السيارة بعنف قبل ان تستقر الى جانب الطريق ..

— ماذا نسيت ؟

— اريد النزول .

.. قالها وهو يناول السائق اجرته .

تطلعت اليه العيون متسائلة .. كف الراكب الامامي عن الشخير .. بدا غير قادر على استيعاب ما يدور من حوله ..

— لن استطيع اكمال السفرة .. لقد نسيت هويتي في البيت .

وكيف يا شاب بتطلع من غير هوية ..

— الهوية ضرورية ولازم تسلمها على الجسر .

— بامكانك ان تركب اي سيارة للقدس ومنها الى غزة ..

.. يقف الى حافة الاسفلت ..

.. لم يكذب على السائق .. لم يكذب على الركاب رغم انه لا يملك هوية..

نازح .. تصريح زيارة .. ملف .. بصمة .. وثيقة سفر غير مشفوعة بفرمانات البراءة وحسن السير والسلوك ..

.. المرة الاولى والاخيرة التي تزور بها الضفة عن طريق عمان .. لماذا جئت ؟ ماذا تريد ؟ أتنق بحسن مراقبتنا ..

هوية الانسان تلازمه اكثر ما تلازمه حينما يكون في بلده .. ميزة ما بعدها ميزة رغم الاحتلال . الهوية لا تعني صورة شخصية وبضعة كلمات .. الهوية التصاق .. رؤية .. وصول ..

الوصول مطلب اساسي ... هكذا قال احد الركاب .. الوصول امر حتمي لا بد منه كي تنتفي الاطر التجميعية ، كي ينتج الرد ..

الكف المغلقة لحم مسجى .. العين المغلقة تثب هامد . ما نحتاجه المزيد من الحسم ... الوصول حسم لكل المواقف المبطوطة ..

المعادلة بشقيها واضحة لديه تماما .. لن يخطيء الطريق .. لن يخطيء الوصول ولتكن ما يكون ..

.. تمتم بها قاذفا جسده عبر السيارة المتجهة الى الناحية الاخرى ..

■